

## نظرة في مصرع «كليوباترا»

فيخاطب (زينون) الشيخ العجوز الذي كان ينطوى على حب عميق دفن لكليوباترا، ولكنه يغالبه، إذ لا فائدة فيه؛ وأين الشيخ المحطم من السلطان الشاب الناصر؟... ولذلك لا ينال «زينون» على حبه من كليوباترا إلا البسمة الخاطمة أو الحكمة العابرة، فيقول:

وتعطى حين تلقاها ابتساما وانطونوس يعطى ما يشاء  
صباحهما مغازلة وصيد وللاقداح والقُبُل المساء  
أترضى أن يكون سرير مصر دعائه الدعارة والبغاء؟  
أنهدم أمة لتشيّد فردا على أنقاضها؟ بشس البناء؟

ثم رأيتُ بعد ذلك كيف يعتمد الحاكمون الضعفاء  
السفهاء إلى تضليل الشعوب وخديعة الأمم عن طريق  
الافتراءات، والمظاهر الكاذبة التي تخفي من ورائها النار  
في الحشيم، فها هي ذى كليوباترا تعود مهزومة من موقعة  
«أكتيوم»، وتجر وراءها ذبول الحية والخسران،  
ولكن «بلاطها» وحاشيتها وبطانتها لا تريد للملكة أن  
تظهر بين الشعب بمظهر المكسور المنهزم، ولذلك تعتمد  
(شرميون) وصيفة الملكة المحبة لها إلى اصطناع طائفة  
من الشعب، وتكليفهم بتريّد نشيد عريض كذوب،  
كلمة تمجيد للانتصار الموهوم، وإيحاء إلى الشعب بأن «كليوباترا»  
قد انتصرت في الحرب انتصارا باهرا، وتسمع «كليوباترا»  
من قصرها هذا النشيد فتساءل عن مردديه: «ألحير تجمّعوا  
أم لشر؟»... فتحمض «شرميون» في خديعتها وتظاهرها،  
لكي تتمزق موافقة من مليسكتها على ما فعلت فتقول لها:  
الجاهل يا مليسكة بالشط يعوجون في حبور وبشر  
سرهم ما لقيت في «أكتيوم» من ظهور على العدو ونصر  
لا يقولون أو يعيدون إلا نبأ بات في المدينة يسرى  
فتتظاهر «كليوباترا» بالغضب من هذا الصنيع، أو قل  
إن حفيظتها قد ثارت فأنفجرت لضياح النصر الذي كان  
مرجوا فتقول:

يا لافك الرجال! ماذا أذاعوا؟

كذب مارووا صُراح لعمري

مسرحية «مصرع كليوباترا» للشاعر العظيم شوقي آية  
من آيات البيان العربي الخالد، وما طالعت فيها مرة إلا أحسست  
بنشوة فكرية عجيبة، إذ أرى الأسلوب يعلو، والتصوير  
يجلو، والمعاني تنفجر تنفجر الينابيع الثرارة، وفي آخر  
مرة كنت أطالع فيها دفعتي إحساس خفي إلى تسطير هذه  
السطور كتصوير لجولة سريعة خلال هذه الروضة الأنيقة  
الحافلة بشقى الأزهار والثمار...

إن المسرحية تدور حول «كليوباترا» الملكة التي تولت  
حكم مصر فترة من الزمن في العهود القديمة السحيقة،  
وتصور كيف تقلبت هذه المرأة بين عز وذل، وبين نصر  
وقهر، وبين امتتهار واستكبار، وكيف انتهت النهاية  
الأليمة التي ساقتها إليها الحوادث سوقا...

هأنذا أقف عند قول «حابي» لرفيقه «ديون» حينما  
يسمعان الشعب المصري المضلل يردد نشيدا لنصر زعموه:

استمع الشعب «ديون» كيف يوحون إليه  
ملاّ الجو هتافا بحياتي قاتليته  
أثر البهتان فيه وانطلى الزور عليه  
ياله من بقاء عقله في أذنيه!

فيرد عليه (ديون) مصورا ذلة الشعب، وهوانه على  
نفسه وعلى حاكميه، ورضاء بالدون في مواطن خفزه ومعاهد  
شرفه، فيقول:

«حابي» سمعتُ كما سمعت، وراعى

أن الرمية تخفى بالراعى

هتفوا بمن شرب الطلا في تاجهم

وأصار عرشهم فراش غرام

ومشى على تاريخهم مستهزئا

ولو استطاع مشى على الأهرام!

ويعود بعد قليل فيخاطب الشعب للتابع الساذج قائلا:

هداك الله من شعب برى يصرفه المضلل كيف شاء

وراعنى كثيرا أن أرى (حابي) يصور حياة «كليوباترا»

وحبها «لأنطونيوس»، وتأثير ذلك في سمعتها وهيبه ملكها،

وتعريضها كرامة البلاد لأقاويل الحنا ومسبات التعريض،

أى نصر لقيتُ حق أقاموا  
ألسن الناس في مديحي وشكري ؟  
ظفر في فم الأمانى حلو  
ليت منه لنا قلامة ظفر !  
وغدا يعلم الحقيقة قوبى

ليس شيء على الشعوب بسر !  
فتخفف « شرميون » من حدة مولانها وحفيظتها ،  
وتحاول أن تشرح لها الأسباب السياسية التي دعتها إلى تلك  
الحديعة ، وتلمح لها إلى الأضرار الجسام التي كادت تقع  
لولا هذا الاحتيال ، فتقول لها :

ربة التاج ، ذلك الصنع صنعى

أنا وحدى ، وذلك المسكر مكبرى

كثرت أمس في الإياب الأقاويل

وظن الظنون من ليس يدرى

فأذعت الذى أذعت عن النصر

وأسمعت كل كوخ وقصر

خفت في خاطرى عليك الجماهير

وأشفقت من عداء لك كثر

فاغفرى جرائى ، فيارب ذنب

يتعب العذر فيه مهدت عذرى

فما أسرع ما تستجيب « كليوباترا » لضعفها البشرى ،  
وما أسرع ما تهبل الفرصة لتستفيد منها وتستغلها ، وما أسرع  
موافقتها على ذلك الصنيع ، وتشكر ( شرميون ) عليه ،  
ثم تحاول أن تحيل الهزيمة إلى نصر ، والفسولة إلى بطولة ،  
والتهقير إلى عبقرية ، فتلتمس لنفسها المآذير ، وتسرف  
في التأويل ، وتبحث عن الخارج الواسعة من ضيق فعلتها  
السائئة فتقول :

كنت في مركبي وبين جنودى

أزن الحرب والأمور بفكرى

قلت روما تصدعت فترى شط

را من القوم في عداوة شطر

وتبينت أن روما إذا زا

لت عن البحر لم يسد فيه غيرى

كنت في عاصف ، سللت شراعى

منه فانسلت البواخر إثرى

موقف يعجب العلاء كنت فيه

بنت مصر ، وكنت ملكة مصر !

ثم أنتقل في روضات أريصات من فن شوق المبدع  
الموهوب ، حتى أرى « كليوباترا » والعراف بين يديها في حفلة  
بقصرها المياض بالكاس والطاس ، والقصف والعزف ،  
والندامى والمغنين ، والشاعرين والشادين ، والأزهار  
والرياحين ، وألوان الطعام وفنون الشراب ، وغير ذلك  
مما صورته شوق العظم أبعد تصوير بطرق مختلفة ، ليظهر  
باختلافها اقتداره واقتنانه ، فيخشى « كليوباترا » أن تكون  
خاتمتها سيئة ، جزاء ما أسرفت في لذاتها وشهواتها ، ولعبها  
وشربها ، فتتظاهر بالغضب من ثناء العراف عليها وتقول :

خلنى من زخرف المدح ومن زور الثناء

ما وراء اليد يا عراف من غيب القضاء ؟

أحضيض يوحى الآ خر قل لى أم سماء ؟

خاتم الأيام أولى باهتمام العظماء

ثم أرى « أنطونيوس » البطل الظافر يخشى أيدي الحياة  
والعذر التي تمتد في دناءة ووضاعه ، لتنال مشتهاها في الظلمات  
ومن وراء الظهور ، بعد أن عجزت عن أخذه في ميادين  
البطولة والرجولة التي يتسابق إليها الأنداد والأقران ؛ ولعله  
تذكر في موقفه ما حدث ويحدث دائماً بين الناس ، فإن العظم  
منهم يعلو ويرتفع ، ويسبق من عداه ، فلا يطاوله منهم  
مطاول ، فتبدأ الأيدي اللينة الحسيسة تكيد في الدياجى  
وتصيد في الماء العكر ، وتحفر الآبار للاربياء ، وتنصب  
الشباك المستورة للعظماء ، خاف « أنطونيوس » أن يصيبه  
ما أصاب أنداده من الكبراء ، فيقول وهو يتهيأ لمعركة فاصلة  
أحسن لها الاستعداد :

ولست أخاف الدارعين ، وإنما

أخاف خفآت الخيانة والغدر

وليس كمين الحرب ما أنا هائب

ولكن كمين الغدر في ظلمة الصدر

ثم نشهد « أنطونيوس » نفسه بعد صفحات وقد خانه الحظ  
فانهزم وانكسر ، ولعبت الخيانة في ذلك دوراً جليلاً ، فيبكي  
أنطونيوس حظه العاثر الدائر إلى تابعه الوفى الأمين « أوريوس »  
فيحاول التابع في إخلاص وقوة أن يهون على سيده الهزيمة ،  
وأن يذكره بسنة الحياة وطبائع الأحياء ، وبأن الحظ  
دوار ، وأن الأيام دول ، وأن الدنيا لا تثبت على حال ،  
ولا تدوم على وضع ، وأن الصعود والهبوط يتعاوران  
السكائنات في سلطان أقوى من سلطانها ، فيقول :

وقارك قيصر لا تجزعن وخل المقادير تجري المدى  
تلق الهزيمة ثبت الجنان كما كنت تلقى الفتوح العلا  
فما أنت أول نجم أضاء ولا أنت آخر نجم خبا  
وقد تنزل الشمس بعد الصعود، وتسقم بعد اعتدال الضحى  
ويارب غار علاه الجفوف على هامة قد علاها البلى  
ثم نرى « أنطونيو » يصور ذلته بعد عزته ، وسقوطه  
بعد رفعته ، وهوانه بعد سيادته ، وتلون الناس معه ، في  
قصيد طويل رائع منه قوله :

وشردت في شرق البلاد وجد في

طلبي عداى بغربها وعداك

أغدو على سيف العدو وناره

وأروح بين مكامن وشباك

وتلست نفسى السيوف ، ورامنى

في البر والبحر الكمى الشاكى

كانت حياتى للرجال أليّة

واليوم هنت فأقسموا بهلاكى

وبعد أن يطيل التحسر والبكاء يجيبه تابعه « أوريوس »

شاعراً بذلة الأبطال بعد العزة :

أجل قيصر اعتضنا من العز ذلة

ومن حلية الإعلام عطل التنكر

فهنا كأنقاض الحصون على الثرى

وضعنا عليه كالقنا المتكسر

نهم كأبناء السبيل ، وطالما

أخفنا سبيل العاهل المتجبر

وما منزل الأبطال إلا رضى الوغى

إذا هى دارت أو رواق العسكر

ثم وقع البطل ، ولقى مصرعه ، وكان مصرعاً أليماً رخيصاً  
طعن نفسه في ساعة ضيق بيده فزهقت روحه ، وانطوت  
الحياة الطويلة العريضة الحافلة ، وأصبح الفاتح المغوار المزلزل  
جثة هامة لا حراك فيها ، وهامى ذى كليوباترا تودع  
« أنطونيو » بعد مصرعه فترفعه بفن شوق وروعة تصويره  
فوق هام الأبطال ، وترثيه بهذه الزفرات الحارة ، وتلك  
الفرائد التى لا يرثى بها إلا الفذ العملاق :

قد تداعى محور الأراض وميزان الشعوب

مال كالشمس جمالا وجلالا فى الغروب

أيها المجروح لو تدري جروحي وندوبى

أيها الداهب قد آ ن عن الأرض ذهوبى

أيها الخالص ودا ليس ودى بالمشوب  
أيها الصادق وعدا ليس وعدى بالكذوب  
عن قريب ينطوى القبر ر علينا ، عن قريب  
كللوه بالريا حين ، وبالغار الرطيب  
واهتفوا فى أذنيه بأناشيد الحروب !  
ثم تصور « كليوباترا » لؤم الناس وخسة تصرفهم حين  
يمجدون الغالب مهما كان سبب غلبه ، ويطنون المغلوب  
المخذول مهما كان عذره ، كما قال الأول :

والناس من يلق خيرا قائلون له

ما يشتهى ، ولأم المخطيء الهبل

فتقول « كليوباترا » :

ويخلى قد طلبت عند طباع الناس

س ما عز عندهم مطلوبوا

خلق الناس للقوى للمزايا

وتجنوا على الضعيف الذنوبا

احتفوا فى الحياة والموت بالغا

لب ، فانظر هل عظموا مغلوبا ؟

شيعوا الشاة جيفة بـمـداهم

واتقوا وهو فى الرمام الدنيا !

وهذا موقف يتداعى فيه بنيان البطل الصناديد ،  
ويتقوض ركن الهيكل المشيد ، مالم يجد المواسى والمعين ،  
ولذلك نرى ( أونوبسيس ) الكاهن العالم يسارع فيثبت  
عزيمة « كليوباترا » ، ويهون عليها ما هى فيه من شدة ، فيقول  
لها كالأمر المحرض :

الوقار الوقار يا لبأة النيا لى ، ولا تجعلى الزئير النحيبا  
وقفى للخطوب فى عزة الملك وفى كبره تدلى الخطوبا !

وتلحق « كليوباترا » بوادى العدم ، فنرى قيصر المنتصر  
الغالب ، المقنتر الطالب ، يضرب مثلاً كريماً للرجولة ،  
فيعف ويترفع عن الانتقام الرخيص والشامة الوضيعة والتحكم  
المهين ، فيرى خصيمته كليوباترا قائلاً :

محا الموت أسباب العداوة بيننا

فلا الثأر ماجاح ، ولا الحق ثأر

وما استحدثت عند الكرام شماتة

صروف المنايا والجدود العواثر !

\*\*\*

ليت شعرى ، لماذا جرى القلم بهذه السطور ؟ ! .

أحمد الشرباصى

المدرس بالأزهر الشريف